

أكتب لكم من طهران..

إحفظوا هذا المقال في أرشيفكم

كمال خلف

وصلت إلى إيران قبل أيام بعد أربع سنوات عن آخر زيارة لها وكاتت وقتها لحضور مؤتمر لدعم فلسطين في العاصمة طهران، والحقيقة أنني تفاجأت بحجم المتغيرات التي طرأت على العاصمة من الناحية العمرانية وتطور البنية التحتية، وبدأت طهران لي دون أدنى مبالغة واحدة من أكثر العواصم في العالم جمالا وتطورا .

ولا يقتصر التغيير على الحجر، بل ينسحب على البشر كذلك..حجم الانفتاح في المجتمع الإيراني أكاد أقول انه غير مسبوق عن كل السنوات السابقة...وقد استمتعت بالسهرة في مقاهي طهران المزدهمة حتى ساعات الفجر الأولى، بينما في السنوات الماضية كانت تقف المدينة باكرا.

حجم الخدمات ونوعيتها المقدم من الدولة للمواطنين تضاعف..حتى يصعد بشكل مكرر إلى ذهنك سؤال "أين هو الحصار؟".! بالمقابل تفاجأت بحجم تدني قيمة العملة الوطنية" التومان "أمام الدولار..وارتفاع أسعار السلع الكمالية، بينما هناك مازال فرق شاسع بين أسعار المواد الأساسية في إيران قياسا بمثلاتها بالدول العربية.

وعلى سبيل المثال يعتبر الدواء من أرخص المواد الأساسية في إيران وتكاد تكون أسعاره رمزية، بالإضافة إلى الماء والكهرباء. أما عن الملفات الساخنة والتي تقع إيران في صلبها على امتداد المنطقة، فإن المستوى السياسي والعسكري في إيران، يؤكد على أمر واحد وهو أن إيران قوية ومستعدة وجاهزة لمواجهة التحديات التي تواجهها.

وإذا أردنا أن نفصل أكثر وحسب ما سمعناه وفهمناه ونحن على الأرض الإيرانية..فإن قادة إيران يعتبرون أن الخطط التي يعلن عنها قادة تل أبيب لمواجهتهم، ليست إلا في إطار حرب نفسية وكلامية، وأن "إسرائيل" لم تعد بالمقياس العسكري والاستراتيجي ندا لهم، بل هي في وضع حرج وستكون بوضع أصعب في المرحلة المقبلة.

زادت إيران من دعمها لفصائل المقاومة العراقية، وفي حديث مع أحد قادة تلك الفصائل أكد أن الخطط العسكرية والإمكانات باتت مؤمنة، وأن معركة إخراج القوات الأميركية من العراق تنتظر ساعة الصفر خلال الأشهر القليلة المقبلة، وحسب قول هذا القيادي فإننا سوف نشهد نوعا جديدا متطورا جدا لاشكال وأساليب المقاومة.

أما في سورية، فايران تعطل سبب عدم الرد على الغارات الإسرائيلية التي تستهدف قواعدها هناك في عمق الكيان الإسرائيلي بالتأكيد على عدة أمور هامة:

أولها، أن الجيش السوري يدافع مباشرة ويسقط هذه الصواريخ قبل وصولها إلى أهدافها..وإن مسار الاستراتيجية العسكرية المشتركة بين دمشق وطهران لا يتأثر بهذه الضربات العمياء كما يصفونها، بل إن عملية بناء قدرات عسكرية سورية رادعة لإسرائيل مستقبلا بل كاسرة لقواعد الاشتباك السابقة حتى قبل الحرب على سورية، تجري بشكل حثيث ودقيق، وتدرج "إسرائيل" حجم هذا المشروع لذلك لا تملك لتعطيله سوى بضع غارات، وهي حتى الآن لم تنجح في ذلك. وعلى المدى البعيد ستترك إسرائيل حجم خسارتها.

أما عن إيران ذاتها فإن الحديث يدور عن تطور كمي ونوعي في قدرات إيران العسكرية والصاروخية على وجه التحديد. وعن اطمئنان عال المستوى من أن أحدا لن يجرؤ على مهاجمة إيران في المستقبل القريب جدا.

تراقب إيران التحالف الذي يتشكل بين بعض الأنظمة العربية و"إسرائيل"، ويرى فيه الإيرانيون خسارة كبيرة للطرف العربي، هم لا يعتبرون أن ثمة عداء بين العالم العربي وإيران، لأن الدول التي تقع في قلب العالم العربي مثل "سورية والعراق والجزائر" تربطها بها علاقات ممتازة، بالإضافة إلى علاقات جيدة مع سلطنة عمان وقطر ولبنان. وحالة لا عداء ولا صداقة مع مصر .

لذلك يؤكدون أن حجم الدعاية حول العلاقات العربية الإيرانية كبير وغير واقعي..وتفند بعض النخبة الإيرانية مقولات رائجة وشائعة في البلدان العربية بسبب الدعاية الموجه ضدهم من وسائل إعلام خليجية حسب قولهم..مثل تهمة التشييع في المجتمعات العربية، يعتبرون المسألة تشابه ما تم استخدامه بعد الثورة الإيرانية من وجود صراع" عربي فارسي" على وقع الحرب الإيرانية العراقية بعد انتصار الثورة الإسلامية..يصرون على أن هذه التهم تستخدم في الصراع السياسي بين الجمهورية الإسلامية والولايات المتحدة الأمريكية وليس لها جذر تاريخي أو مذهبي.

ولا ترى النخبة الإيرانية أن هذه المقولات أو الاتهامات هي حواجز تاريخية تقف حائلاً أمام حوار وتعاون عربي إيراني لا بد منه، وإذا كانت ظروف وقوع دول عربية تحت السيطرة الأميركية تجعل من هذه الأنظمة تحدد خياراتها بمواجهة إيران ومد يد التعاون "إسرائيل"، فإن هذا حسب وجهة النظر الإيرانية خطأ استراتيجي، ستجد هذه الأنظمة في نهاية المطاف أنها أمام حقائق التاريخ والجغرافيا، وأنها لا بد أن تدرك أن الفضاء الإيراني الإسلامي هو الوجهة الصحيحة للحوار والتفاهم.

وعندما اثننا مع بعض النخبة الإيرانية التصريحات الصادرة من إيران حول سيطرتها على أربع عواصم عربية، قال الإيرانيون أن هذا ليس موقف الدولة.. وإن ثمة فهم خاطيء حتى لفحوى هذا التصريح الغير رسمي ومن شخصية لا تشغل أي موقع في إيران . ويوضح أن المقصود هو أن محور المقاومة أصبح متواجدا في أربع عواصم عربية وليس إيران ..ويستغرب الإيرانيون كيف يتم التركيز على هكذا تصريح هامشي، بينما هناك عشرات المواقف لمرشد الجمهورية الإسلامية تدعو إلى الإخوة والحوار مع العرب، وهناك عدد من المبادرات قدمها رئيس الجمهورية حسن روحاني لفتح حوار مع السعودية قوبلت بالرفض.

وبعيدا عن وجهة النظر الإيرانية التي نقلناها هنا، فإن ثمة عدم فهم واضح من قبل كثير من النخبة السياسية العربية لحقيقة الموقف الإيراني، وماذا تريد إيران من الفضاء العربي وكيف تنظر له ولقضاياها، ولماذا تدخلت هنا أو دعمت هناك . ندرك تماما أن هناك "فيتو" أمريكي كبير على أي نوايا عربية لحوار مع إيران، لأن الإدارة الأمريكية تدفع هذه الأنظمة لفتح علاقات مع "إسرائيل" وتحويل العداء نحو إيران ..وهو عين الكارثة .كيف نعادي الأمة الإيرانية المسلمة العظيمة؟

والمسألة هنا لا تتعلق بنظام الجمهورية الإسلامية، إنما بأمة كبيرة وجاره تتشارك معنا التاريخ والحضارة والجغرافية، بالمقابل نرتمي بإحضان عدو اغتصب الأرض والمقدسات ويحتل أرضا عربية واركتب المجازر بحق الشعوب العربية، وليت الأمور تنتهي عند هذا الحد، بل الأخطر هو أن "إسرائيل" التي تطالب بيهودية الدولة سوف لن تقف عند حدود فلسطين والجولان وأجزاء من جنوب لبنان، إنما خطرنا سوف يمتد إلى باقي الأرض والدول العربية وسندخل جميعا إلى العصر الصهيوني ..وقت ذاك سوف تدرك الأقاليم العربية المبشرة بعلاقة مع "إسرائيل" أي منقلب سوف ينقلبون .

احفظوا هذا المقال في أرشيفكم للسنوات المقبلة!

كاتب واعلامي فلسطيني